

قال حكيم العرب
دع الرأي يَنْبَ حتى يَخْتَمِرَ وإياكم
والرأي الفظير

محاضرة

في

العقل وكيف يتكون

ألقاها

مفكرة أحمد بك فراهي العمودي

مفتش بوزارة المعارف العمومية

على ملا من كبار رجال العلم والمعلمين بدار نقابتهم في

٦ مارس سنة ١٩٢٢

طبع بطبعة السخاذه

الى

مضرة صاحب العمارة حافظ حسن باشا محافظ العاصمة

صديق الفضال

اليك أهديت كلمتي السابقتين فخطيتا منك بشرف القبول

واليك أهدي كلمتي الثالثة « العقل وكيف يتكوه »

فان كان حظها لديك حظ سابقتها فذلك ما آمله عندك

وأوسمه فيك واذا انضم الى ذلك أنها تدل بموضوعها على أختيها

لما ورد في الحديث الشريف « انه الله لم يخلق خلقا هو أكرم عليه من

العقل » كان الامل في قبولها أقوى والرجاء بحظوتها أعظم والسلام ما

أحمد فسرهمي العمروسي

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

أيها الاخوان الاعزاء

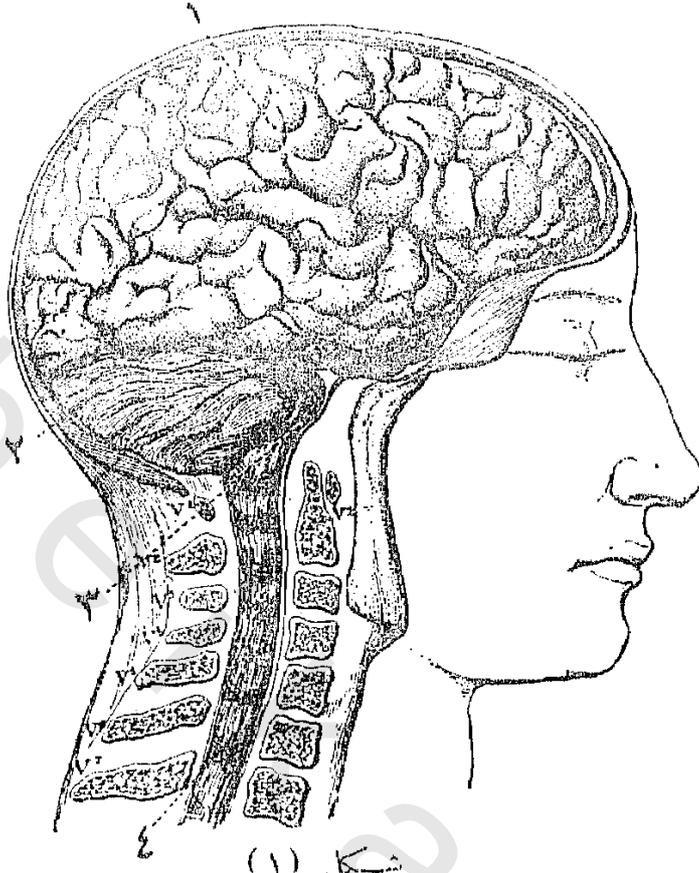
لقد تكلمت في محاضرتي السابقة عن منطقة نفوذ كل من العلم والاخلاق واختصاص العلم بقوة واحدة من قوى النفس وهي القوة المفكرة والاخلاق بالقوتين الأخرين وأعني بهما قوتي الارادة والشعور .

ولكننا مع هذا التخصيص بينا أن تلك القوى تعمل على قاعدة حسن التفاهم والتضامن لصالح المجموع وهو النفس المدبرة وشرحنا على قدر ما وصلت اليه جهودنا ومعلوماتنا ما للعلم من التأثير في إصلاح النفوس وتهذيب الاخلاق لذلك لا تألو الأمم المتحضرة قديمها وحديثها جهداً في سبيل توسيع نطاق التعليم كل يوم ونشره بين جميع الطبقات أما اليوم فاني أشرف بأن ألقى على حضراتكم معلومات إجمالية عن العقل وكيفية تكوينه لنستنبط منها ما قد يعود على التربية بالفائدة وبالأثر النافع في التعليم

وفي اعتقادي أنه موضوع جدير باهتمام العقلاء والمرين خاصة
لان الواجب على كل من يتصدى تربية النفس وتثقيف عقولهم بالعلوم
والمعارف أن يلم بأهم النظريات الفزيولوجية (علم وظائف الاعضاء)
والمشاهدات النفسية الفلسفية يستوى في ذلك المرني والوالد اذا أراد
كلاهما أن يبني العقول على أساس صحيح ويقومها على قواعد النظام
والترتيب ذلك لان النفس في حالتها الراهنة أعنى في حالة ملابستها
الجسم واتصالها به لا يمكنها أن تفكر بدون المخ وهو الاداة الوحيدة
التي تستخدمها للقيام بأعمالها المتنوعة كما أنه لا يمكنها أن ترى الدنيا
الخارجية بدون العين ولا أن تسمع حركاتها بدون الاذن

ولقد دلت المشاهدات العامية والأعمال التشريحية على أن كل
فساد يطرأ على قوة من القوى العقلية يكون منشؤه فساداً في بعض
الخلايا المخية لذلك وجب علينا أن نبدأ القول بكلمة موجزة عن المجموع
العصبي المركب من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل المألثة لتجويف
الجمجمة ثم يليها النخاع الشوكي المسترسل في القناة الظهرية الى القطن
فالمجموع العقدي (أو العظيم السمياتوى) فالاعصاب التي تربط تلك
المراكز العصبية بجميع أجزاء الجسم

وهي خيوط دقيقة جداً لدرجة أن كل عشرة آلاف منها لا يزيد
سمكها عن مليمتر واحد وهي كما ترى في شكل (٣) منبثة في عامة
أجزاء الجسم لتبلغ مايقع من الحواث الى المخ وتنقل ما يصدر منه
من الأوامر الى محال الوقائع



شكل (١)

(١) المنخ - مكون
من طبقة سنجابية ذات
تموج وتعرض . هي
مستقر الفكر والارادة
ولكل جهة منها عمل
خاص من الاعمال العقلية
المختلفة .

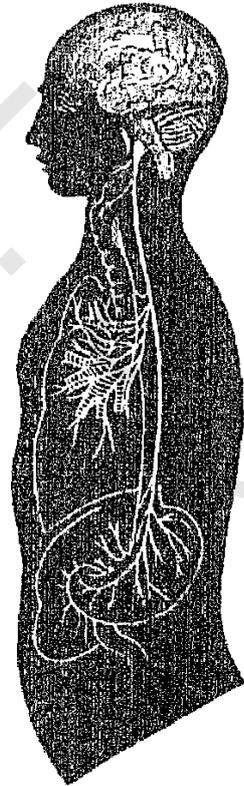
فشل رأى العالم بروكا
سنة ١٨٦١ شخصاً فقد
النطق أثر نوبة شللية

ولكنه كان يفهم ما يلقى عليه من الاسئلة ويجيب عنها تحريرياً فامامات

المريض فخص منحه فوجد بالتلفيف الثالث الجبهي
خدشاً فاستنتج بعد مشاهدات كثيرة أنه مركز
النطق أى مركز الذاكرة المحركة للالفاظ

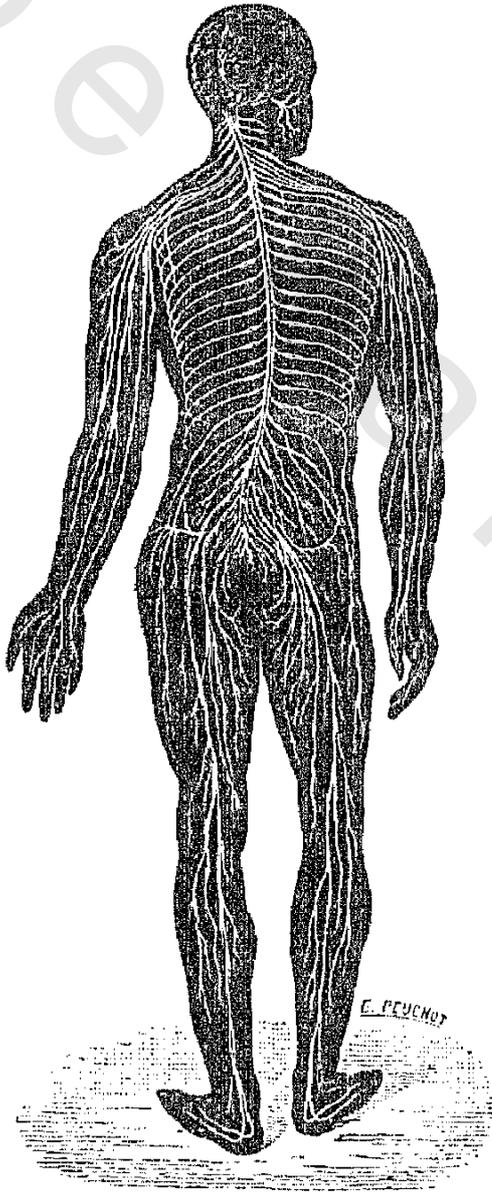
الشفوية وسمى ذلك الموضع بتلفيف بروكا
والمنخ مركز الافعال المنعكسة الارادية التي
سنشرحها بعد

(٢) المنخج - لا يزال حتى اليوم مجهول
الآثار . اذ لم يعرف منها سوى تنظيمه لحركات
الجسم . بدليل انه اذا استؤصل من الدماغ اختلفت
الحركات أو عدمت مع بقاء الفكر غير منقوص



شكل (٢) العصب الرئوى المعدي
Nerv pneumo-gastrique

(٣) النخاع المستطيل - كتلة عصبية صغيرة أسفل المخيخ ذات أهمية عظمى في الحياة . إذ بها نقطة (اسمها فلورانس عقدة الحياة) هي منشأ المصّب الرئوي الممدى المبين بالشكل يمينه وهو المنظم لحركات الرئتين والقلب وإذا قطعت أو جرحت فقد الجسم الروح من فوره لا تقطاع التنفس



شكل (٣)

وبجانب عقدة الحياة نقطة اذا خدشت اختل افراز السكر من الكبد واصيب الشخص بالبول السكري وهكذا

(٤) النخاع الشوكي - ينزل في القناة الظهرية الى القطن . وهو مركز الأفعال المنعكسة غير الارادية فلو وُخز أى عضو من جسم نأثم انسحب في الحال من موضعه بدون أثر المسخ فيه . بل بأمر النخاع الشوكي الذي وصل اليه الأثر فأوحى بالحركة . ولذا تكون تلك الحركة مضطربة على غير هدى . فقد يصطدم العضو بما يؤذيه اثناء انسحابه - أما في حالة

اليقظة فإن النخاع الشوكي ينقل الى المخ المؤثرات الخارجية ويوصل الأوامر الصادرة منه الى الجهات المتأثرة .

فالمخ هو الذى يدير دولاب وظائف المخالطة أى الحياة الحيوانية من احساس وحركة كما أنه يشرف على وظائف التغذية أى الحياة النباتية كالهضم والتنفس والدورة الدموية والافراز لانها وان كانت آية لادخل للارادة فيها الا أنها مرتبطة بالمخ بدليل ان الانفعالات النفسية القوية من شأنها أن تحدث اضطراباً فى دورة الدم والافراز وينشأ عن ذلك اصفرار الوجه والاعماء والسكته المخية وذرف الدموع اضطراباً من العين وان إجهاد المخ فى المسائل العقلية لا سيما بعد الأكل مباشرة من شأنه أن يموق عملية الهضم إن لم تقل أنه يوقفها

والذى يهمنى الليلة هو أعمال الحياة الحيوانية التى تتجلى فى الاحساس والحركة وتلك الافعال سواء أكانت بسيطة أم مركبة كلها أفعال منعكسة إرادية ولتقريب ذلك من الافهام نقول :

ان المؤثرات فى أى جهة من جهات الجسم ينتقل أثرها الى المخ بواسطة أعصاب تسمى أعصاب الحس وهناك يتحول هذا التأثير الى ادراك وعلم بواسطة الخلايا الحسية المخية التى بعد التمحيص والمداولة تصدر الأمر الى الجهات المتأثرة من الجسم بواسطة أعصاب أخرى يقال لها أعصاب الحركة

أمثلة توضح ذلك :

١ - اذا شككنا أى نقطة من عضلة اللسان بآبرة مثلاً فان التأثير ينتقل الى المخ فوراً بواسطة عصب الحس فتتداول الخلية الحسية المخية المرتبطة بهذا العصب فى أمر ذلك المؤثر الخارجى وتجب

عنه بإصدار أمرها. بواسطة عصب الحركة الى عضلة اللسان
بالانسحاب والانقباض تجنباً للخطر المحدق به

٢ - اذا وضعنا قطعة من السكر على اللسان فان الخلايا الحسية تصدر

بعد التحريض أمرها الى الغدد اللعابية فتفرز ما يكفي من اللعاب

لاذابة السكر وابتلاعه لانه ملائم للبنية بخلاف المسألة الاولى

٣ - الوردية في الحديقة تعبق منها رائحة ذكية فيصدر المنخ الامر الى

الجنح والاطراف بالانحناء وقطف الوردية لملاءمتها للجسم

وعلى هذا فالمنخ والاعصاب يمكن تشبيهها بوزارة الداخلية للمملكة

الجسمية فكما أن وزارة الداخلية مرتبطة مع جميع المدن بواسطة البرق

والمسرة (التلغراف والتليفون) حتى اذا وصل اليها خبر حادث من

الحوادث اجتمع الوزير بمن يشاركه في الامر. وخصوا الاخبار الواردة

ثم أصدروا أمرهم بما يجب اتباعه فكذلك المنخ يعمل على هذا النمط كما

أوضحته لحضراتكم

وانما سُميت تلك الافعال الخفية بالمنعكسة لانها تنعكس في المنخ

على مثال انعكاس الصوت اذا قابل حائطاً أو جبلاً (الصدى)

ولنذكر الآن تجربة بسيطة لتمييز أعصاب الحس من أعصاب

الحركة :

يقطع العصب البصرى (وهو عصب حسي لانه ينقل الضوء الى

المنخ فيبصر) خلف مقلة العين ثم يؤثر فيه بمؤثر كهربائي أو ميكانيكي

في الطرف المتصل بالمنخ فيحدث فيه ضوءاً أما اذا أثر في الطرف

المتصل بالعين فانه لا يحدث فيها أقل ضوء وبالعكس اذا قطع عصب الحركة بين العين والمخ وأثر في النهاية المتصلة بالعين فانها تتحرك أما اذا أثر في النهاية المتصلة بالمخ فانه لا يحدث شيء مطلقاً

ويمكن اجراء التجربة بعينها على العصب السمعي أو الذوقى أو أى عصب آخر

ونتيجة هذه التجارب أن العين لا تبصر بنفسها ولكنها آلة الابصار للمخ وان الاذن لا تسمع بنفسها ولكنها المخ يسمع بواسطتها وأنه هو الذى يحس ما يقع على الجسم من المهيجات المختلفة كالوخز والجرح والحرق وهكذا وان خيل الينا اننا نشعر بالآلام محل حدوثها أي في نهايات الأعصاب التي تنقل تلك المؤثرات الى المخ ومن هنا جاء اغترار الميتورة أطرافهم الذين يشعرون أحياناً بالآلام شديدة في أصابعهم وقد فصلت عنهم من زمن ليس بالقصير

هذا وان العجب لياًخذ منا مأخذه اذا فكرنا في كيفية تحويل التأثيرات الخارجية الى علم وادراك بمجرد وصولها الى تلك العجينة المخية التي لا يخرج تركيبها الكيميائي عن الماء والزلال والدهن والفوسفور وما شاكل ذلك

حالة من أحوال النفس العجيبة وموقف من مواقف الغيب التي استأثر الله تعالى بها فليس للانسان الا أن يقف أمامها وقفة اجلال واكبار ويطأطئ الرأس خشية واحتراماً لان العلم بحقيقة ذلك قد انفرد به الله جل وعلا والله لا يظهر على غيبه أحداً وسيظل أمر النفس

سراً دفيناً وأمرًا مكتوماً مهما جد الباحثون واجتهد المنقبون لانك اذا وضعت بين يدي أكبر عالم مدقق منقطع لهذا البحث جمعتمين لعالم وجاهل فانه لا يتأتى له بحال أن يفرق بينهما ويقرأ ما كُن فيهما من هذا يا حضرات السادة ندرِك قول الله عز وجل:

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من

العلم الا قليلا »

على أن الانسان لا يزال يجهل حقائق القوى الطبيعية التي يسخرها في أغراضه ويتمتع بآثارها في غدوه ورواحه من الضوء والحرارة والمغناطيس والكهرباء فكيف به اذا حاول كشف ما وراء الطبيعة وكله أسرار لا قبل للانسان بادراك كنهها واني بهذه المناسبة أقص على مسامع حضراتكم الواقعة الآتية :

وقع في يدي أيام كنت طالب علم بياريز كتيب في الكهرباء من تلك الكتب المعروضة للبيع على ضفتي نهر السين فرأيت في أول صحيفة منه تلك الحكاية الطريفة التي أفادتني كثيراً مدة اشتغالي بمهنة التدريس وحاصلها أن سيدة من كبريات السيدات سألت العالم الرياضي الكبير (جوزف برتران) في محفل ضم عظماء الرجال وفضاحل العلماء هل القمر مسكون ؟ فقال لا أدري فرجعت اليه بعد برهة وسألته أني الامكان عمل منظار مكبر يقرب القمر الى متر من الرائي كما قرأنا في بعض المجلات أخيراً ؟ فأجاب العالم لا أدري فاغتاضت السيدة وقالت إذن قل لي ما فائدة علمك الكبير وفضلك الجلم فقال لها فائدة ذلك يا سيدتي أني

أقول لا أدري حينما لا أدري

ثم قال المؤلف بعد ذلك ان كثيراً من العلماء يعرفون الكهروباء
ولكني لا أحذو حذوهم لان حقيقتها مجهولة لا علم لاحد بها وكل
ما نعرفه عنها هي آثارها التي نستخدمها في أغراضنا المتنوعة

فلا ينجبن أحد اذا سئل عن أمر لا يعرفه أن يقول لا أدري

فالعلم بحر لا ساحل له وفوق كل ذي علم عليم

وهذا يقرب مما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد ورد أنه

سأل رجلاً عن أمر فقال له - الله أعلم - فغضب عمر وقال شقيننا ان كنا

لا نعلم أن الله أعلم اذا سئل أحدكم عن أمر لا يعلمه فليقل لا أدري



الكلمة الثانية

في كيفية تكون العقل

يقول بعض الفلاسفة ان الانسان لا يفكر باختياره و ارادته
وأنه ليس في وسعه ابراز فكرة واحدة من تلقاء نفسه أو من صميم
فؤاده ولو بلغ الغاية من النبوغ والعبقرية لأن نفس الطفل عند ولادته
قل أن يوجد فيها سوى بعض الغرائز والشهوات والدواعي المادية
وأما الفكر فليس بفطري فيها بل ينبت تدريجاً ويكتسب بالتجربة
من مخالطة الدنيا الخارجية وانفعال النفس بمؤثراتها الحسية والمعنوية
التي لا تزال تتسرب اليها بلا انقطاع من طريق الحواس فينطبع أثرها
فيها كما ترسم صور المرئيات بمرورها أمام الآلة المصورة وتتولد
الافكار في النفس متتابة تتابع الحوادث التي أوجدتها متنادية كل
فكرة فيها تدعو أختها اليها بما بينهما من المناسبة والميل فتتصل بها
وتكون خلفة جديدة في سلسلة أفكارنا ومعلوماتنا ثم تتصادم بالاحتكاك
والمخالطة مع الافكار القديمة المخزونة في النفس فتحركها من سكونها وتثيرها
من مكمنها وتبعثها من سرقدها وقال الشاعر العربي في هذا المعنى
إذا طال عمر المرء في غير آفة أفادت له الأيام في كرها عقلا (١)

(١) لا أجد شيئاً أشبه بالمعاني يدعو بعضها بعضاً لي الذهن فتقيم فيه
مؤنسة متمارفة من شخص يلج مجتمعا يعرف فيه ولو فرداً واحداً فإنه لا
يلبث أن يجعله ساهماً للتعارف بالباقيين

وعلى ذلك لا تكون أفكارنا ملكاً خالصاً لنا نحكم فيها ونتصرف في أمرها بل هي بنات الظروف والحوادث ونتاج الطوارئ الخارجية تنجبه معها وتسير في مجراها دون أن يكون للانسان منها سوى العلم بها والاذعان لقبولها كما هي من غير تغيير ولا تبديل كما قبل أبويه وديته من قبل

أما اذا لم يصادف من يعرفه فانه يستمر قلقاً يمكث ما يمكث وكأنه في عزلة ثم لا يلبث أن يخرج شأن المعنى الغريب في سرعة الزوال من النفس وما مثل الفكر المرتب الذي تتفلغل فيه المعاني متآلفة متناسبة الا كمثل أحجار (الدمينو) ترص بنظام ينتهي باقفال الدائرة محكمة أما ذلكم الذي يشحن ذهنه بأنواع من المعلومات منسكة متنافرة فلا يمكن الا أن يكون مضطرب الفكر مهوش الدهن ينتقل من موضوع الى آخر دون أن يكون بينهما أقل مناسبة كان طرفة بن العبد عند بعض الملوك والمسيب بن علس ينشده شعرا في وصف جمل ثم حوله الى وصف ناقة فقال طرفة « استنوق الجمل »

فذهب مثلا يضرب للرجل يكون في حديث أو صفة شيء ثم يخاطبه بغيره وينتقل اليه لذلك يجب على المربين أن يعنوا باتخاذ ما عند الاطفال من المعلومات المنزلية أساساً يبنون عليه المعلومات التي يريدون تدريسها لهم إذا كانوا حديثي عهد بالتعليم ويخلق المناسبة والارتباط بين موضوع الدرس القديم والدرس الجديد حتى تكون المعلومات في أذهانهم كحلقات السلسلة الواحدة ليربط بعضها بعضاً

وليس منا من يجهل ما لتحول الاحوال وتقلب صروف الدهر
وحوادثه من التحكم في أفكارنا والتسلط على مشاعرنا وأفعالنا فكم
من أمر يبرمه الانسان بعد الروية وتقلب النظر واعمال الفكر ثم لا
يلبث أن يعرض له خاطر أو يأتيه خطاب من صديق مثلاً فيندم من
فورره ويود لو كان قد سبق الى نفسه ذلك الخاطر أو علم من قبل بما في
ذلك الخطاب حتى كان يتوقف عن امضائه ولا يتمجل في تنفيذه وكانت
الامور تأخذ طريقاً آخر غير الذي صارت فيه

فقبل أن يسنع ذلك الخاطر أو يصل ذلك الخطاب سارت حركة
تنادى المعاني في اتجاه خاص فأوصلت الى نتيجة خاصة وبعد ذلك عرضت
حالة جديدة غيرت وجهة تداعى المعانى تغييراً كان من شأنه أن يؤدي
حتماً الى نتيجة أخرى فالانسان في تصرفاته لا محالة خاضع للبيئة الحالية
المحيطة به من كل مكان

ذكرت الجرائد الفرنسية منذ مدة نبأ انتحار موظف كبير
وجهت اليه بعض التهم وبينما هو يحتضر انتهى اليه أن الخاوف التي
أساءته الى اليأس قد بددت وزالت وتبين أنه بريء فتمتم قائلًا trop tard
سبق السيف العذل ثم قضى نحبه بعد دقائق

ولكن ليس معنى ذلك أن يستسلم الانسان للحوادث ويلقى
اليها زمام نفسه وينقاد لها انقياد العاجز الذي لا حول له ولا قوة فان
العقل ينمو بكثرة المراس والاستعمال والمزاولة كالذى يحصل لذوى
الأبنان والشيوخ من الحنكة وصواب الرأي وكثرة التجربة ومعالجة

الأمور بما أفادتهم إياه السنون وعامتهم الحوادث ثم هو يزداد نعاء وقوة بالتعليم وحسن التربية وصلاح البيئة فإذا قيض للإنسان معايشة الأختيار من الناس وتلقى العلوم من أفواه الأفاضل من الأساتذة والمربين فإنه بلا شك لا يلبث أن يتغلغل في ذهنه طائفة كبيرة من الأفكار الناضجة التي يصطفيها لنفسه مما جرب وتعلم فتصبح رأس ماله الذي يعتمد عليه في مقاومة الحوادث وسلاحه الذي يدوده عن نفسه في معترك الأفكار

وتسمى هذه بالأفكار المديرة *Idées directrices*

فإذا هجم على الإنسان بعد السن الأئقة فكر جديد والفكر يحرك في الصدر شهوة والشهوة تقضى بالأفكار العاجل فماذا هو فاعل يا ترى؟ إن الذي يقع هو أحد أمرين اثنين:

إما أن تجد الشهوة ساحة الضمير مجدبة فارغة من الموانع التي تكون عقبة في طريقها فتنتهي طبعاً إلى الفرض الذي تطلبه من غير دفاع ولا منازعة إذ لم يعترضها من الضمير مقاوم فتغالبه ، وإما أن يتصدى لها فكر من تلك الأفكار المديرة الراسخة في النفس بالتجربة وطول الأختبار والتربية فتحاول وقفها عند حدها ومنعها من البلوغ إلى غرضها وهناك يتفاقم الخلاف بين الخصمين وينشب بينهما عراك هائل على مرأى منا وتحت نظرنا يكون النصر فيه لأشدهما رسوخاً في النفس وأقواهما امتلاكاً لعنانها وقيادة لها

واليكم مثلاً خيالياً يبين ذلك ويجليه للفهم وينطبق على كثير من أمور هذه الحياة

مرّ ثلاثة نفر في يوم شديد الحر وقد أجهدهم العطش ونال منهم
الظماً فأتوا في طريقهم على كرم قد ينع ثمره ودنا جناه فراقهم حسن
منظره فطوعت لهم أنفسهم أكل شيء منه وكان الأول منهم حسن
التربية قد رسخت في نفسه فكرة احترام ملك الغير فصحت عزيمته
من فوره على الأينال من هذه النفاكة الا اذا وجد البستاني ونقده ثمنها
أو يمضي في سبيله متحملاً ألم العطش مفضلاً داعي الحكمة على الشهوة
وكان الثاني أقل تهذيباً منه فاندفع بتريته الى قطف عنقود من
العنب ولسكنه قبل أن يعلم منه حبة نظر فرأى صاحبه فأثر الرجوع
الى رأى أخيه وعدل عن فكره ونسج على منواله مرجحاً كفة العقل
بعد أن كانت مرجوحة ومضى في سبيله متحملاً ألم العطش ملبياً داعي
الحكمة ونداء العقل

وأما الثالث فكان غلاماً حدثاً ليس عنده ما عند صاحبيه من
وازع الحكمة فهز كتفيه استهزاء بأمانتهما ونزاهة ضميرهما وشرع
يأكل عنقوده مطمئناً هادئاً غير مكترث بزاجر من عقل ولا وازع
من حكمة اذ كان ميدان الضمير عنده خالياً مما يصدده عن هذه الشهوة
العمياء الضارية ولئن استمر مثل هذا الجاهل مسترسلاً في عمائته ولم
يجد من يرشده الى الخير ويكفه عن مراجعة الشر ليكون في كبره
شيطاناً مريداً واهماً كبيراً

ترون من هذا أيها السادة أن شهوات النفس لا تقاوم الا بالافكار
السلامية والعقائد المتمكنة التي رسخت في النفس بالتهذيب والتربية

والتعليم أكثر من رسوخ الشهوات فيها
فإن كان بناء العقيدة واهياً وكانت تلك الأفكار السليمة غير
متسكنة من النفس تمام التمكن قوى سلطان الشهوات عليها فأنحازت
النفس الى جانبها

صاحب الشهوة عبد فاذا ملك الشهوة أضحي ملكاً
عجيب ذلك المزيج المسمى إنساناً فإن إنسانيته قائمة بالروح والبدن
معاً وهما أكثر متعارفين تناكراً وأكبر متقابلين تدابراً فالروح وهى
لطيفة شفافة الهية دأمة التحنان إلى الأفق الذى انفصلت منه والبدن
وهو معتم جُبِلَ من التراب لا يفتأ يحن إلى طينته وينزع والحياة قائمة به
إلى جباته تطلب الروح أن تسمو لأنها سماوية وحب الوطن من الإيمان
ويعالج الجسم أن يهبط بها لأنه أرضى ولا يزال ذلك دأبه حتى تنحل
الشركة المعقودة بينهما

هذا النضال القائم بينهما أما أن ينتهى بفوز الروح فتحتكم فى البدن
« وأحبب بها فى فوزها تتحكم » وحينئذ يكون الإنسان صورة
إنسانية للملك وأما أن ينتهى بفوز البدن وهو فوز لا هزيمة شر منه
وحينئذ يكون الإنسان شيطاناً مريداً

يقول أحد علمائنا الأقدمين : ركب الله الملائكة من عقل بلا
شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما فمن
غاب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلب شهوته على عقله فهو
شر من البهائم

فأذا كان من يقهرُ القوى بطلا فأبين بطولة منه من تغلب بجزئه
الملكي على جزئه الشيطاني لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم عقب
الفراغ من غزوة

رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر أى جهاد النفس
ولا يفوتنا بعد هذا أن نقول أن تلك الأفكار التي جعلناها رأس
مالنا الأدبي الخلقى والتي هي دليلنا الى الخير ومرشدنا الى تمحيص
ما تفاجئنا به الأيام والحوادث من الأفكار الجديدة ليست منابل منشؤها
الطوارئ، الخارجية كما سبقت الإشارة الى ذلك فهي خارجة عن إرادتنا
خروج الحوادث النازلة عن قبضة يدينا هذا ومن جهة أخرى فإن إشارتنا
لتلك الأفكار المديرة وكوننا إصطفيناها لأنفسنا من كثير مما عرض
علينا بميولنا الخاصة وغرائزنا الفطرية وإستعدادنا الوراثي هذا أيضاً لم
يكن لأرادتنا دخل فيه ولم يوجد فينا باختيارنا فالإنسان في الحقيقة
واقع بين نيرين نير داخلي من الامتعدادات الفطرية والغرائز والشهوات
ونير خارجي من الحوادث المفاجئة والأحوال الطارئة وهو فيما بينهما
كالحديد بين المطرقة والسندان

أفيقال بعد ذلك إن الانسان حر في أفكاره وآرائه :

إن مثل الانسان في ذلك مثل أمير أو ولي عهد يراد تزويجه فيؤتى
إليه بعدة من الفتيات محدودة ثم يقال له أنت حر فاختر من أحببت
منهن وفاتهم أنهم لم يعرضوا عليه إلا بعض الفتيات وأن الاختيار
محصور في دائرة معينة لا يتعداها ، يجىء بعد ذلك دور الاختيار فيختار

الامير إما بما توحىه إليه تربيته المكتسبة أو بما يقتضيه ذوقه الوراثي أو بتأثره بميل أبيه أو أمه ثم يقولون بعد ذلك إن الامير كان حراً في اختياره لزوجته على أنه ما كان حراً إلا في القول فحسب

يقول الفيلسوف سبينوزا (Spinoza) ان الناس يعتبرون أنفسهم أحراراً لانهم يرون أعمالهم ويصدرونها بأيديهم ولكنهم لا يفكرون في الاسباب التي دعت إليها واقتضت وقوعها لان تربية الانسان وبيئته وحاله النفسية أو المالية قد تضطره في كثير من الاحيان إلى عمل يظن الناس انه حر في ركوب متنه مع إنه مجبر على عمله بالعوامل المتقدمة

ويحسن بنا أيها السادة أن نضيف إلى رأى هذا الفريق من الفلاسفة القائلين بتكون الفكر من المحسوسات الخارجية بواسطة الحواس كما تبين من الشرح المتقدم رأياً آخر فهناك طائفة كبيرة من العلماء تقول انها مع اعترافها بما للحواس من النصيب الاوفر في تنمية الذكاء وترقية الفكر تعتقد أيضاً أن العقل عند ولادة الطفل ليس صحيفة بيضاء خالية من كل نقش ولا أرضاً قاحلة مجردة من كل غرس بل هو آلة مجهزة بقوى ذاتية وميول وغرائز عقلية تدخل اليها المدركات المحسوسة فتدير حركاتها وتدبر أمرها وإن كانت لا تخلقها وتلك الغرائز والميول هي للفكر بمنزلة الهيكل العظمي للجسم تربط أجزائه وتجمع شتاته وتضم أوصاله واني الى هذا الرأى أميل إذ يؤيده العقل والنظر فان المدركات المحسوسة اذا دخلت إلى النفس وتراكم بعضها فوق بعض دون أن تجد من يهذبها ويرتب أشكالها ويضع كل شيء منها مع مناسبة كانت أشبه

بأدوات البناء الملقاة بالفضاء لأشكال لها ولا نظام يجمعها
أما إذا وضع المهندس يده فيها فإنه يخرج منها الصروح والحصون
والقصور والدور فالفكر كذلك هو المهندس القادر الذي يستقبل تلك
المعلومات الداخلة فيرتبها ويهذبها ويخرج منها الأشكال المتنوعة والنماذج
المخترعة البديعة

ومن تلك الغرائز المخلوقة في عقل الطفل

(١) غريزة المحاكاة والتقليد التي هي أهم ما يدفع الطفل في حياته الأولى
إلى كثير من أعماله

(٢) غريزة المباراة والمنافسة وحب الاستطلاع وهي لا تجعل الطفل
يكتفى بمجرد النظر إلى الأشياء بل تدفعه إلى حب الاستكشاف
والإكثار من السؤال عن كل شيء يعنيه أو لا يعنيه بل هي التي
تدفعنا نحن إلى الاستزادة من العلم والرغبة فيه على الدوام وفي
الحديث الشريف

« لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل »
فعلى كل أب وأم ومدرس أن يتمهد هذه الغريزة الكريمة ويحولها
إلى وجهتها وينمها ويقويها في الطفل ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، فيجيب
عن أسئلته ويثيره إلى السؤال عند الضرورة

ومن رأى روسو الأجابة على أسئلة الطفل إذا كان يقصد بها حقيقة
المنفعة والاستفادة

أما إذا سأل الطفل لمجرد السؤال أو التظاهر بالذكاء والادعاء

فالاولى اغفالها وعدم الاجابة عنها ولكن لا يحسن اغفال الاسئلة
النافعة والاجابة عنها لاجابة تناسب حالة الطفل
أما اذا ترك الطفل ولم يجب على أسئلته فقد تنطفيء بذلك شعله تلك
الغريزة الجميلة ويفتر ذلك الذكاء والنشاط الذي يريد الارتقاء والانبساط
الى أن يخمد ويزول بذلك الاغفال

(٣) غريزة الحب ومن آثارها نفور الطفل من هذا وشدة تشبثه
بذاك وايلافه درس الاستاذ الذي يحبه والمبالغة في ارضائه والحظوة
عنده وان هذا الميل الكريم في الطفل هو بلاشك أساس انتفاعه بعلم
أستاذه وزيادة رغبته فيه ولذا قال الفيلسوف الفرنسي (ديدرو) عند ما
عوتب في شأن تأييده لم يستفد من دروسه : ماذا تريدون أن أعلمه
وهو لا يحبني

لذا قال مشاليه الفرنسي في تعريف التعليم : التعليم مودة ومحبة
وهكذا من تلك الميول الفطرية المشروحة شرحاً جميلاً في كتاب
الغرائز تأليف صديق الاستاذ محمد حسنين الغمراوي بك
أيها السادة - ترون من هذا ومما سبقه ان كلا الفريقين لم ينكر تأثير
البيئة في الانسان ولا أثر التربية فيه وصقال الغرائز والميول التي فطر
عليها بهذه المؤثرات الخارجية - فاذا كانت الدنيا الخارجية هكذا هي التي
تموننا بالافكار وتمدنا بالمعلومات وجب علينا أن نكثر جهدنا من عرض
صور الاشياء المختلفة على الطفل وتعريفه بأوصافها وخصائصها فان
كثيراً ما يكون ضيق الفكر عند بعض الاشخاص ناشئاً من قلة

مشاهداته وما عرض عليه من المرثيات .

وهذا هو السبب في الفرق الذي يشاهد في ابن المدينة اذا قيس
بأمثاله من أبناء القرى فهو أذكي منهم فؤاداً وأنبه نفساً وأكثر توقفاً
لكثرة ما صرّ على عينيه من الاشياء وما عرض لحواسه من المناظر
التي أيقظت عقله وقوت فيه المراقبة والحكم على الاشياء من نعومة
أظفاره

ولسنا نغلو في القول اذا شهدنا أن الانجليز أوفر الناس حظاً من
الانتفاع بهذه الدنيا الخارجية والاخذ عنها فان الناشئ منهم قد يكتفي
من دروس المدرسة بما فيه بلاغ له ثم يصرف عنان عنايته الى تلك
المدرسة العالمية العامة فيموتن نفسه بمعلوماتها وينمي معارفه بما يتلقاه
عنها ويعد نفسه لان يكون له من الكون أفضل أستاذ ومن الطبيعة
أنفع هاد فيجوب آفاق الآفاق قارئاً من صحيفة الوجود ما فيه عبرة
ومن أساطير الكائنات ما فيه هدى وتبصرة أخذوا بذلك أنفسهم
وأولع به متعمهون لمعرفتهم أن هذا هو غذاء العقول ولقاح الافكار .
ولما كان الانسان أسير البيئة كما قدمنا وابن التربية التي صقل بها
وجب على الانسان أن يخفف من وطأة انتقاده لغيره فقد «تلوم غير ملوم»
«ولعل له عذراً وأنت تلوم» فعلى العاقل أن يتحرى الأسباب ويعحص
الحوادث ويقف على أسرار الامور قبل انتقادها رحم الله من قال :
الذنب للأيام لا لي فاعتب على صرف الليالي
أما اذا انتقد الناس بعضهم بعضاً من غير روية وبلا تفكير كما

هو حاصل بين كثير من الأمم المتأخرة فلاريب أنهم يهدمون أنفسهم
بأنفسهم حتى يتفانوا وتذهب ريحهم

ان النقد الصحيح المبني على أسباب صحيحة والذي يراد به تحييص
الحقائق والوصول اليها وبخاصة في المسائل العامة والاجتماعية من أهم
عوامل التقدم والارتقاء ولكن قليلا من الناس من يفرق بين نقد
الافكار في ذاتها والتشهير بالاشخاص والنيل منهم .

هذه القوانين الوضعية التي تنص على عقاب المجرمين لا يشم منها
مطلقاً رائحة الانتقام من اشخاصهم او التشنيع عليهم وذلك لانهم
ارتكبوا ما ارتكبوا مدفوعين بتريبتهم الناقصة وغرائم الشريرة
وانما الغرض من العقاب اصلاح عوجهم وتقويم أوتهم وتحذيرهم
من العودة الى خطئهم والزجر لمن عساه أن تحسده نفسه من الناس
بالاقدام على مثل أعمالهم أو الوقوع فيما استحقوا العقوبة من أجله .



كلمة ختامية

في التفكير الخفي والرأى الدّبري

وضّح مما قدمناه أننا نفكر بروية في جميع شئوننا لنباغ أغراضنا المختلفة وندرك مقاصدنا المتنوعة . واننا نستعرض الطرق الموصلة إليها طريقا طريقا لنختار منها الطريق المأمّبد والمنهج القويم ثم نزاول العمل بإرادتنا واختيارنا . غير أن الفكر حالة غريبة يحاول علم النفس الحديث أن يكشف عنها القناع ويعيط عن وجهها اللثام . وهذه الحالة هي عمل الفكر بعيدا عن مراقبتنا وشعورنا عملا خفيا لا تقل نتائجه في القيمة عن عمله وهو تحت ساطان إرادتنا وعلى اتصال بشعورنا . وهذه الحالة سماها كاربنتر الإنجليزي بالتفكير الخفي أو غير المحسوس *L'inconscient* وهي حالة النوم أو السبات الذي يعتري المخ في كثير من الاحيان فيصير كالناهل الغافل الذي لا يهتم للحوادث ولا يابه للمؤثرات الحسية الخارجية التي تتسرب الى نفسه

والعجب العاجب أن الفكر حتى في غفوته وذهوله لا يترك العمل على الاطلاق بل يسبح سباحات سرية ويجول جولات خفية بعيدا عن شعورنا ومداركنا متنقلا في ظلمات النفس وغياهب المعقولات ليجمع الروابط المتصلة والمقدمات المنتجة والنتائج الصحيحة حتى يصل الى حقائق معقولة ومعلومات جديدة لا ريب فيها ولا لبس في صدقها ثم يبد هنا بها على غير انتظار ويكشفها لنا من غير ترقب ويتحفنا بها

وليس بيننا وبينها موعد

فكان للمخ أوقاتا ينبذ فيها سيطرة الشعور ورق الإرادة ليتحرك

في عالمه حرا مستقلا ليحص الافكار وينتج الاسباب بريث ومهل
ويأتينا بنتائج لا تختلف في شيء عن النتائج التي يصل اليها على علم منا
والصالح بشعورنا ولا يمكن أحدا أن يشك في وجود هذه الحالة النفسية
الخفية بدليل أننا نرى نتائجها ظاهرة محسوسة فيما يأتي :

(١) يحدث أن يعالج الانسان من اول الليل مسألة رياضية يحلها

مثلا فيعجز عنها وينال منه التعب فينصرف وينام ثم يستيقظ حين
يصبح فيرى حلها مرسوما واضحا أمام عينيه

(٢) كثيرا ما يعرض للانسان مشاكل ادارية ومعضلات معاشية

فيحار في تصريفها ويعيا بأمرها وقد يستحوذ عليه اليأس ويدركه القنوط
ثم يظهر له عفوا بعد وقت ما طريق حلها سهلا مسيرا

(٣) اننا كثيرا ما نبحث عن كلمة أثناء المحادثة فلا نجدها وبعد أن

تركها وشأنها ونشتغل بغيرها لا نلبث أن تمر بالخيلة في وقت لم ترتقب
مرورها فيه وذلك ما يسميه الفرنسيون بعقل آخر درجات السلم
(esprit du bas de l'escalier) وهو عندنا الرأي الدبري وهو ما يعرض

من الصواب بعد فوت الوقت وضياع الفرصة . واذا كان الامر كذلك

فن الكيس واصالة الرأي أن ننتفع بنتائج هذا النوع الخفي من التفكير

بالتريث والنظام والاناة والصبر حتى ينكشف الغطاء ويظهر الصواب

فاذا عجزنا في موضوع ما بعد تفكير طويل عن الوصول الى

نتيجة وجب ألا تقنع بأن الوصول إليها صار قسيم المستحيلات فقد يتناول الفكر الخفي هذا الموضوع فيرتب ويمحص ويربط ويستنتج حتى يصل الى النتيجة المرغوبة ثم يفاجئنا بها فنبلغ ما رجوناه وندرك ما تمنياه ولكننا اذا جزمنا بأن ما وصلنا اليه هو كل ما يمكن أن ينتجه الفكر وامضينا العمل على هذه العقيدة ثم ظهر لنا وجه الصواب من بعد وقعنا في ندم الرأي الدبري وقانا الله شره وأعاذنا منه

قال الجاحظ في البيان والتبيين «وكانوا يأمرون بالتبذير والتبذير وبالتهجر من زلل الكلام وزلل الرأي ومن الرأي الدبري والرأي الدبري هو الذي يعرض من الصواب بعد مضي الرأي وفوت استدراكه»
الرأي الدبري يملأ القلوب حسرة والصدور ندما ولا يكون الا من وراء رأي لم يببت ولم يختم نعوذ بالله منه ومن عواقبه الوخيمة: يقول أحد حكماء العرب دع الرأي يغب حتى يختم واياكم والرأي الفطير
لعلكم تذكرون ندامة الكسبي على كسر قوسه في قصته المشهورة ذلك لانه لم يببت الرأي فعض أصبعه ندما حين ظهر له الصواب حتى قطعها وصارت ندامته مضر بالامثال حتى قال الفرزدق

ندمتُ ندامة الكسبي لما غدت مني مطلقاً نوار

لما انصرف مروان بن الحكم من مصر الى الشام استعمل عليها ابنه

عبد العزيز وقال له حين ودعه:

اذا كنت في حاجة مرسلًا فارسل حكيمًا ولا توصه

أى بنى انظر الى عمالك فان كان لهم حق غدوة فلا تؤخرهم الى عشية وان كان

لهم عشية فلا تؤخر ثم الى غدوة واعظمهم حقوقهم عند محاسنها استوجب بذلك الطاعة منهم الى ان قال وان كان بك غضب على احد من رعيتك فلا تؤاخذ به عند سورة الفضب واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ثم يكون منك ما يكون وانت ساكن الفضب مُطفاً الجمة فان اول من جعل السجن كان حكيماً ذا اناة ولذا جرت العادة عند الامم المشهورة بالتروى وحصافة الراى بقراءة المشروعات في المجالس النيابية المرة تلو المرة واحاطتها من لجنة الى لجنة وتقليب الامور بين ايدى الكثيرين حتى يتم اللاحق ماترك السابق ويصل المتأخر الى امام يصل المتقدم فتخرج الامور مخصصة والمسائل مستوفاة من كل وجه

الراى كالليل مسود جوانبه والليل لا ينجلي الا باصباح
فاضمهم مصابيح آراء الرجال الى مصباح راىك تزدد ضوء مصباح
ولقد شرع المربون يستفيدون من العقل الاختمارى في جميع فروع
التعليم خصوصاً فيما يلى

(١) موضوعات الانشاء - يجب على المعلم ان يعطيها الطلبة قبل الكتابة عليها بايام ويكلفهم بالتفكير فيها من ان لآخر ويسألهم عما وصلوا اليه ويناقشهم فيه وينبه اذهانهم الى عناصر جديدة في الموضوع حتى اذا نضجت افكارهم واختمرت آراؤهم امرهم بالكتابة عليها

(٢) تحفيظ المحفوظات - لا ينبغي تحفيظها في وقت واحد بل في جملة اوقات فبعد شرح القطعة شرحاً وافياً وعرض وجوه محاسنها وافت الانظار الى حسن اسلوبها وجميل معانيها يقرؤها التلاميذ مرة ثم يتركونها

ويعدون قراءتها بين آن وآخر حتى يكون للعقل مجال للاختمار وللرأى طريق إلى الانضاج فيخرج المحفوظ ثابتا وطيدا آخذنا من الفكر مجرى واضحا نيرا لا يعترض ما يجعله فلما سريع الزوال

(٣) استعادة ما سبق اعطاءه للتلاميذ من الدروس ومذاكرتهم اياه فليس ادعى إلى استنارة الفكر والاهتداء إلى مواطن الحقيقة من استعادة التفكير في الشيء وتقليبه على وجوهه من أن لا آخر

سئل العالم الانجليزي نيوتن المستكشف لقوانين الجاذبية العامة كيف وصلت إلى استكشافها فقال « بالتفكير فيها دأما »

والمثل الفرنسي يقول « الثبورغ صبر طويل »

Le génie est une longue patience

ولله دو محمد بن بشير اذ يقول

ان الامور اذا سدت مطالبها فالصبر يفتق منها كل ما ارتجبا
لا تياسن وان طالت مطالبة اذا استبصنت بصبر ان ترى فرجا
اخلق بذى الصبر ان يحظى بحاجته ومدمن القرع للإبواب ان يلجا

هذا وسنلقى قريبا ان شاء الله تعالى كلمة رابعة في

عاطفة الجهال وأثرها في التربية والتعليم